الإعجاز الصوتي في سورة (الكافرون)

د. رافع عبد الله مالو
جامعة الموصل - كلية الآداب

د. عزّة عدنان أحمد عزّت
جامعة دهوك - كلية التربية / زاخو

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

أظهرت الدراسة الصوتية لسورة (الكافرون) المفاصلة في العبادة التي تحدثت عنها السورة من خلال تعاقب الفاصلة، وكشفت عن محاولة اقتلاع الانحراف من جذوره وأعماقه من خلال ورود صوت اللام–باستثناء لفظة قل– حصراً في لفظة الردع (لا) وصوت العين حصراً في لفظات العبادة، فضلاً عن حصول السورة على أعلى نسبة للأصوات المجهورة في جزء عمَّ كله وهي ٩٠.٧% وأعلى نسبة للأصوات الشديدة وهي ٣٢% فعززت بذلك فحوى السورة في إعلان عبادة الله على الملأ بقوة وشدّة المتسق بابتداء السورة بفعل الأمر (قل) فضلاً عن حصول السورة على أوطأ نسبة للأصوات المستعلية في جزء عمَّ وهي ١.٠٣% ليعبّر عن استفال الكافرين أيّما تعبير.

* * *

عالجت السورة مرحلة كان فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مكة حين قال له بعض صناديد الشرك : تعال نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوماً[١]، فعبّرت عن حاله (صلى الله عليه وسلم) وحالهم لما تقدم وفيما يستقبل[٢]، فشملت الأزمنة الثلاثة[٣]: الماضي والحاضر والمستقبل، وافتتحت السورة بفعل الأمر (قل) لتظهر الاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص[٤]، وليقول كل مسلم ذلك، يعزز ذلك –فضلاً عن فوائده الأخرى كتقوية النغم وتقوية المعاني الصورية والتفصيلية[٥]– التكرار[٦] الذي أوحى "باليأس إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء

الكفرة"[٧]، فحسمت أطماعهم وكذبت ظنونهم[٨]، ويبدو أن تكرار المد من خلال الخطاب بالنداء بـ (يا أيها)، أو النفي بـ (لا) بدل (لن)، أو استعمال اسم الموصول (ما)[٩] بدل (من)، أو استعمال اسم الفاعل بصيغة جمع المذكر السالم (الكافرون) بدل جمع التكسير (الكفرة) أو (الكفار) الذي يدل على ثبوت الوصف ودوامه[١٠]، قد شكل إعلاناً صريحاً واضحاً يدل على البعد بين الفريقين من خلال امتداد المقطع الصوتي في (يا) و (لا) و (ما)، و (كا) و (رو)، فضلاً عن ذلك فان استعمال النداء في قوله تعالى [قل يا أيها الكافرون] بدل قل للكافرين، أفاد أن يكون القول أكثر إثارة وتنبيهاً، ويستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم[١١]، وأما استعمال (لا) فلما فيها من دلالة النفي على ما مضى ولما سيستقبل فضلاً عن دخولها على الجملة الاسمية والفعلية وهذا غير موجود في (لن).

وأما استعمال (ما) فلأنها تستعمل لذات غير العاقل وصفات العقلاء، ولأن العبادة تكون للصفات، وقد يحمل غير العقلاء صفات العقلاء، فقد استعملت (ما) للعبادة لله ولغيره[١٢]، فضلاً عما يشعرنا به امتدادها من تناسب مع العبادة لأن العبادة، لا تكون لمدة قصيرة واللطيف أنها لم تأت في القرآن كله إلا مع (ما) لتتفق صوتاً ومقطعاً ومعنى.

ولأنه لابد للوعاء من أن يكون منسجماً مع ما يودع فيه وملائماً لما يعرض من خلاله، فقد جاء المد بصوت الألف بنسبة ٧٣.٧% وبصوت الواو بنسبة ٢١%، وبصوت الياء بنسبة ٥.٣%، فأوحى بالمراد وهو قوة أسماع الكافرين ذلك، والجدول الآتي يوضح ذلك:

الآية	ص ح	ص ح ح		ص ح ص		ص ح ح ص		المجموع
		العدد	الصوت	العدد	الصوت	العدد	الصوت	
١	٢	٢	آ آ	٣	ل ي ل	١	و	٨
٢	٣	٢	آ آ	٢	ع ع	١	و	٨
٣	٣	٤	آ آ و آ	٤	ن م ع د	٠		١١
٤	٤	٤	آ آ آ آ	٣	م د م	٠		١١
٥	٣	٤	آ آ و آ	٤	ن م ع د	٠		١١
٦	٧			٢	م م	١	ي	١٠

المجموع	٢٢	١٦		١٨		٣		٥٩

وإذا ما نظرنا إلى السورة على أنها مقسمة على ثلاثة[١٣] أقسام يوضحها المخطط الآتي فإننا نلحظ تناسق معنى هذه التقسيمات مع الفاصلة مع المقطع الصوتي مع روي الفاصلة. و "كل فاصلة ضمن أسرتها تنزع إلى تحقيق لون جمالي من الجرس الظاهر و الخفي .. وتنسجم مع تركيب الآية وتتسق في معناها"[١٤].

الآية	المقطع الصوتي	الصوت	المعنى
قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون	ص ح ح ص ص ح ح ص	و ن و ن	إعلام الكافرين أنه(ص) لا يعبد ما يعبدون.
ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد	ص ح ص ص ح ص ص ح ص	د م د	التوكيد على ما سبق يدخل اليأس إلى قلوب الكفار وظهور محاولة المفاصلة في العبادة من خلال تناوب الأصوات في روي الفاصلة.
لكم دينكم ولي دين	ص ح ح ص	ن	مجيء الفاصلة المنفردة يظهر النهاية الحاسمة أو الخاتمة غير المتوقعة.

ولم تنته الآية الأخيرة بالياء والنون، "لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال فهو يهدين و يسقين"[١٥]، فحسب ولكن لأن الدين لا يُعرَّف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) بل بالله كما جاء في السورة اللاحقة (سورة النصر) في قوله تعالى [ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا].

ونلحظ في المخطط صورة المفاصلة في العبادة بين الكافرين والرسول (صلى الله عليه وسلم)[١٦] من خلال تناوب أصوات الفاصلة في الآيات التي تتحدث عن العبادة،

فالتعاقب بينها واضح، وكأنه يمثل "العرض الذي يقتضي تقسيم العبادة بين الله وبين الشركاء على نوبات زمنية، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق"[١٧]، بل وترسم صورة هذه المفاصلة ثانية من خلال تسلسل المد بأصوات العلة في السورة والمخطط الآتي يوضح ذلك:

آ آ و آ آ و آ آ و آ آ آ آ آ آ و آ ي

حيث المقاطع الثلاثة الأولى المكونة من (آ آ و) تشكل كل منها آية من الآيات الثلاثة الأولى، ثم يأتي المد بالألف المتكرر خمس مرات أربعة منها في الآية الرابعة وهي الأقوى (ولا أنا عابد ما عبدتم) لأن "اسم الفاعل واقع موقع الحال وهو صالح للأزمنة الثلاثة"[١٨] فعبّر المد بالألف حصراً عن صرخة مدوّية لإسماع الكافرين لأنه أقوى حروف المد، وإن رأينا هذا عند احتسابنا المد في المقطعين (ص ح ح) و (ص ح ح ص)، فأننا عند احتسابنا المد في المقطع (ص ح ح) لوحده نرى ما هو أعجب يوضحه المخطط الآتي:

آ آ آ آ آ آ و آ آ آ آ آ آ آ و آ

(٦) (١) (٦) (١) (١) (١)

واللطيف أن قراءَة حفص (لِيَ دين) هي التي أسهمت في تكوين هذا الإيقاع ولو قُرى كما الكسائي (ليْ دين) لما كان كذلك[١٩]، فكأن الجزء الثاني مصغر للجزء الأول لأنه يحافظ على نفس تسلسل المد، وهذا يصور السورة والآية الأخيرة التي فيها يُختصر معنى السورة!

ويبدو لنا في تكرار تناوب صوت اللام وصوت العين، والأخير هو الصوت الحلقي الوحيد في السورة كلها باستثناء القاف في الآية الأولى فكأنه وهو أنصع الحروف وأعمقها مخرجاً يظهر لنا باقترانه باللام المنحرف المجهور بشكل لافت للنظر محاولة اقتلاع الانحراف من جذوره وأعماقه لأن كل (لام) كانت من خلال كلمة (لا) وكل (عين) كانت من خلال كلمة من كلمات العبادة (اعبد، تعبدون، عابدون)، والجدول الآتي يوضح ذلك:

الآية	صوت اللام	الكلمة	صوت العين	الكلمة
١	٢	قل، الكافرون	٠	
٢	١	لا	٢	اعبد، تعبدون

الآية	صوت اللام	الكلمة	صوت العين	الكلمة
٣	١	لا	٢	عابدون، اعبد
٤	١	لا	٢	عابد، عبدتم
٥	١	لا	٢	عابدون، اعبد
٦	٢	لكم، لي	٠	
المجموع	٨		٨	

أما أعجب ما حصلتُ عليه من التأمل في أصوات السورة ومقارنتها بسور الجزء فهو:

١. أنها السورة الأولى التي حصلت على أعلى نسبة للأصوات المجهورة وهي (٩٠.٧%) وفي هذا تعزيز لإعلان عبادة الله على الملأ ولا سيَّما أنها ابتدأت بفعل الأمر (قل).

٢. أنها السورة الأولى التي حصلت على أعلى نسبة للأصوات الشديدة وهي (٣١.٩٥%) وفي هذا تعزيز للإعلان لكي يكون بقوة وشدّة.

٣. أنها السورة الأولى التي حصلت على أوطأ نسبة للأصوات المستعلية وهي (١.٠٣%) وفي هذا توضيح لمكانة الكافرين السفلى علماً أن الصوت الوحيد المستعلي في السورة هو صوت القاف في فعل الأمر (قل) وهذا يؤكد علاقة اسم السورة ومعناها ببنيتها الصوتية ويظهر أعجاز القرآن في التحدي بالإتيان بسورة واحدة...

قائمة المصادر

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المسمى منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات:
أحمد بن محمد البنا، تحقيق شعبان محمد اسماعيل، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، بيروت، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية.
- الأساس في التفسير:
سعيد حوّى، ط٢، القاهرة، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع.
- أسرار التكرار في القرآن:

محمود بن حمزة بن نصر الكِرماني، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط١، تونس، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٣م، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، ط٣، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م.
- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ دراسة تأريخية فنيّة مقارنة:
فتحي أحمد عامر، الاسكندرية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، منشأة المعارف.
- التعبير الفني في القرآن:
د. بكري شيخ أمين، حلب، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م، دار الشروق.
- تفسير التحرير والتنوير:
محمد الطاهر بن عاشور، (د.ت)، الدار التونسية لنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل:
محمد جمال الدين القاسمي، القاهرة، ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤م، دار الحديث.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:
أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، تحقيق: محمد أحمد الأمد و عمر عبد السلام السلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- السيرة النبوية:
ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، بيروت- لبنان، (د.ت)، دار إحياء التراث العربي.
- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم:
نذير حمدان، ط١، جدة- السعودية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، دار المنارة.
- الفاصلة في القرآن:
محمد الحسناوي، سوريا – حلب، (د.ت)، دار الأصيل للطباعة والنشر والتوزيع.

- كتاب السبعة في القراءات:
أبو مجاهد، تحقيق شوقي حنيف، ط٢، القاهرة، (د.ت)، دار المعارف.
- كشف المعاني في متشابه المثاني:
تصنيف بدر الدين بن جماعة، تحقيق محمد محمد داؤود، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، دار المنار للنشر والتوزيع.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها:
د. عبد الله الطيب المجذوب، ج٢، ط١، مصر، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- معاني الأبنية في العربية:
د. فاضل صالح السامرائي، ط١، الكويت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، ساعدت جامعة بغداد على نشره.
- ملاك التأويل، القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه باللفظ من آي التنزيل:
أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاّح، ط١، بيروت- لبنان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، دار الغرب الإسلامي.
- من بلاغة القرآن:
أحمد أحمد بدوي، القاهرة، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠م، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- التوازي في القرآن الكريم:
وداد مكاوي حمود الشمري، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د. شجاع العاني و د. حيدر لازم مطلك، مقدمة لكلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

هوامش البحث:

(١) السيرة لابن هشام ٣٨٨/١ و التعبير الفني في القرآن/٤٧.

(٢) ملاك التأويل/١١٥١.

(٣) أسرار التكرار/٢٢٦ و ٢٢٧.

(٤) التحرير والتنوير ٥٨٠/٣٠.

(٥) ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب/٤٥.

(٦) ينظر: كشف المعاني في متشابه المثاني/٢٠٧.

(٧) من بلاغة القرآن/١٥٥ و ينظر: الأساس في التفسير ٦٧٢٨/١١.

(٨) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، فتحي أحمد عامر/٧٧.

(٩) ينظر: روح المعاني ٦٧١/٣٠ و تفسير القاسمي ٤٩٦/٩.

(١٠) معاني الأبنية/٥١.

(١١) تفسير التحرير والتنوير ٥٨١/٣٠.

(١٢) فاضل السامرائي، برنامج لمسات بيانية على قناة الشارقة الفضائية، ٢٠٠٤.

(١٣) ينظر: الفاصلة في القرآن /٢٤٤. و التوازي في القرآن الكريم/٥٧.

(١٤) الظاهرة الجمالية/٤٢.

(١٥) الأساس في التفسير ٦٧٢٣/١١.

(١٦) ينظر: الفاصلة في القرآن/٣٤٥.

(١٧) معارج التفكر ٧٠٨/١.

(١٨) ينظر: أسرار التكرار/٢٢٦ – ٢٢٧ و بصائر ذوي التمييز ٥٤٨/١ و معاني الأبنية/٥١.

(١٩) ينظر: كتاب السبعة في القراءات/٦٩٩ و إتحاف فضلاء البشر/٦٣٤ (فتح ياء الإضافة من (ولي دين) نافع وهشام وحفص وأثبت الياء من دين يعقوب، وافقه الحسن).

A Phonetic Study of Al-Kaafiruun Sura

The sura of Al-Kaafiruun (The Disbelievers) reveals the compromise of worshipping that was active at the time in Quraish. This theme is indicated by the rhyme succession of the verses in the sura. The recurrence of the alveolar lateral /1/ and the pharyngeal fricative /2/ in the inhibitory term (laa) [No/1 (You) don't, in this sura)], and the expressions of worshipping respectively, uncover the attempt to uproot delinquence. Also, the highest percentages marked in this sura alone for the occurrence of voiced phonemes and plosives, 90.7% and 32% respectively, compared to other suras in the 'Samma' section, enhances the singnificance of the sura in publically declaring the strong call for the worship of Allah. This is embodied in the sura beginning with the imperative verb 'qul' (say).

On the other hand, the sura marks the lowest percentage of occurrence of velarized sounds, (1.03%) in the Samma section, which expresses the throwing of the disbelievers to the rock bottom.